دراسات المستشرق الألماني فيرنر كاسكل
(1896 - 1970)
عن كربلاء وشمال الجزيرة العربية

■ أ.د. حامد ناصر الظالمي

فيرنـر كاسـكل، كـما قـال عنـه الدكتـور نجيـب العقيقـي[1]، هـو مـن أسـاتذة جامعـة كولونيـا ومـن كبـار علـماء السُـلالات والأنسـاب، وهـذا واضـحٌ مـن دراسـاته لعـرب قبـل الإسـلام والبـدو والأنسـاب إذ نَـشَرَ مجموعـةً مـن البحـوث والدراسـات في مجـلاتٍ وأماكـنَ متعـددةٍ ومنهـا مثـلاً مجلـة إسـلاميكا الصـادرة في ألمانيـا ومـن بحوثـه فيهـا:

1.عرب الشمال في الجاهلية سنة 1927

2.أيام العرب سنة 1931

3.المهدي في نظر الشيعة سنة 1931

وبحوثٌ أخرى نُشِرت في أماكن متعددة منها:

4.سكان المدينة نُشر في (الكتاب التكريمي للمستشرق أوبنايم سنة 1933)

5.بدو شمال أفريقيا نُشر في (محفوظات باسلير سنة 1938)

6.كتاب البديع نُشِر في (مجلة الآداب الشرقية سنة 1938)

7.سلالة عربية نُشِر في مجلة أوريانس سنة 1949

8.ترجمة ماكس أوبنايم نُشر في (المجلة الشرقية الألمانية سنة 1951)

(1) يُنظر «المستشرقون» لنجيب العقيقي، دار المعارف، مصر، ط5 سنة 2006، 2/ 465

9.البدو العرب نُشر في (المجلة الشرقية الألمانية سنة 1953)
10.الأعشى نُشر في مجلة الآداب الشرقية سنة 1931
11.الدراسات الشرقية لليفي دلافيدا سنة 1956
12.المفضليات نُشر في (مجلة أوريانس سنة 1954)
13.بدو الجزيرة العربية نُشر في كتاب دراسات في تأريخ الثقافة الإسلامية لناشره جرونباوم سنة 1954
14.الحضارة الإسلامية (الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية سنة 1955)، وعندما رجعت إلى هذا البحث وهو مُترجَم إلى اللغة العربية وجدت عنوانه (التأثير الغربي والحضارة الإسلامية) وقد نُشر ضمن كتاب (الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية) لمجموعةٍ من الباحثين، وحرّرهُ المستشرق جرونباوم وهو بترجمة الدكتور صدقي حمدي إلى العربية[1]
15.الوهابيون سنة 1960
16.الأدب الأموي نُشر في مجلة (أوريانس العدد 16 سنة 1963)
17.الأخيضر نُشر في مجلة (الإسلام مجلد 39 سنة 1964)
18.الأمويون نُشر في (الكتاب التكريمي لشبياس سنة 1967)
19.حُضن الغراب نُشر في (مجلة أوراق شرقية سنة 1970)

والمعلومات عن فيرنر كاسكل شحيحةٌ جدًّا، إذ لم أعثر على المعلومات الكافية عن حياته ونتاجه العلمي، ولكن على الرغم من قلّة هذه المعلومات فإننا نجد المرحوم الدكتور منذر البكر أستاذ تأريخ العرب قبل الإسلام قد ترجم له مجموعةً من البحوث إلى العربية وهي:

1.كُتيّب عنوانه (الدور السياسي للبدو في التأريخ العربي) كان كاسكل قد نشره في كولونيا سنة 1952، ونشر الدكتور البكر تلك الترجمة في مجلة الخليج العربي الصادرة عن مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة في المجلد العشرين العدد 1 سنة 1988 ص71-98

(1) هذا الكتاب مجموعة بحوث المؤتمر الاستشراقي الذي عُقِدَ في لييج في بلجيكا من 21- 25 / 9 / 1953 وشارك فيه 17 مستشرقاً، ونَشرت ترجمته العربية مكتبة دار المتنبي في بغداد في 552 صفحة، وكان بحث كاسكل في الصفحات (481- 521).

2.لحيان المملكة العربية القديمة، وهذا البحث هو فصلٌ من دراسةٍ أشمل نشرها كاسكل عن مملكة لحيان سنة 1951 وترجمهُ إلى العربية الدكتور منذر البكر ونشره في مجلة كلية الآداب جامعة البصرة في العدد الخامس سنة 1972 ص(174-195)

3.المسكوكات اللحيانية وهو جزءٌ صغيرٌ جدًّا من كتابه عن لحيان ترجمهُ إلى العربية الدكتور منذر البكر ونشره في مجلة المسكوكات في العدد5 سنة 1974 ص100-101

4.الأُخيضر، وقد مرّ ذكره في الرقم 17 سابقاً، وقد ترجمهُ إلى العربية الدكتور خالد اسماعيل حقي ونشره في مجلة سومر الصادرة عن مديرية الآثار العامة في بغداد في جزء 1-2 من المجلد 25 سنة 1969 ص(35-44)، وكانت هذه الترجمة بعد خمس سنوات من نشر البحث باللغة الألمانية.

وبهذا تكون هذه البحوث الأربعة المترجمة إلى اللغة العربية هي: ثلاثةُ بحوثٍ ترجمها الدكتور منذر البكر وواحدٌ ترجمه الدكتور خالد إسماعيل حقي وواحدُ ترجمهُ- كما ذكرنا سابقاً- الدكتور صديقي حمدي، فهذا كُل ما استطعنا جمعه من معلوماتٍ عن كاسكل وترجمات بحوثه إلى العربية، ولكن المهم في الأمر هو ما طرحهُ كاسكل في تلك البحوث.

لحيان المملكة العربية القديمة

يُمثّل بحث كاسكل عن مملكة لحيان إضافةً نوعيةً في وقته، إذ لم تُنشر بحوثٌ أو دراساتٌ وافيةٌ عن هذه المملكة قبل دراسة فيرنر كاسكل، التي نشرها سنة 1951، فقد كانت البحوث نادرةً عنها قبله، إذ أنّ «**أول مَنْ لفت الأنظار إلى ديدان (عاصمة لحيان) هو السائح الإنكليزي (جارلس م. دوتي) فقد رَحَلَ عام 1876م إلى أرض مِديَن، ثم زار مواضعَ عديدةً آثاريةً مثل (مدائن صالح) أو (الحِجر) و(العلا) و(ديدان)**»[1].

(1) دراساتٌ في تأريخ العرب قبل الإسلام، الدكتور منذر البكر، من إصدارات جامعة البصرة سنة 1991 ص 380.

أمـا الدراسـة الثانيـة فهـي كتـاب ل Winnett، ويُعـد مـن الكتـب المهمـة التـي عُنيـت بتأريـخ الجزيـرة العربيـة، فقـد عالـجَ بالدراسـة والتحليـل المشـكلات الخاصـة بتأريـخ الجزيـرة العربيـة، ودرس ضمـن ذلـك مملكـة لحيـان ومجموعـةً مـن النقـوش الديدانيـة والمَعينيـة واللحيانيـة ويشـتمل الكتـاب عـلى الدراسـات الآتيـة:

-A study of the Lihyanite and Thamavidic Inscriptions, the University of Toronto press 1937

-Notes on the Lihyanite and Thamavidic Inscriptions Lemausem 51. 1938

والدراسـة الثالثـة قـام بهـا الباحثـان جوسـين وسـافينياك وهـي تحليـلٌ وترجمةٌ للنقـوش اللحيانيـة بعـد أن زارا منطقـة ديـدان عـام 1909 واسـتطاعا جمـع 380 نقشـاً.

والدراسـة الرابعـة هـي دراسـة كاسـكل وكانـت سـنة 1951 وكانـت أشـمل الدراسـات وقـد ترجـم الدكتـور منـذر البكـر جـزءاً صغـيراً منهـا.

والدراسـة الخامسـة وهـي المهمـة جـدّاً وهـي رسـالة الدكتـوراه التـي كتبهـا الأنصـاري وحصـلَ بهـا عـلى درجـة الدكتـوراه مـن قسـم الدراسـات السـامية في جامعـة ليـدز سـنة 1966، وركّـزَت عـلى تأريـخ مملكـة لحيـان وكان عنوانهـا (أسـماء الأعـلام اللحيانيـة دراسـةٌ نقديـةٌ ومقارنـةٌ)، إذ قـام الباحـث بتفسـير النقـوش اللحيانيـة ودراسـة مملكـة لحيـان مـن جوانبهـا الاجتماعيـة والتأريخيـة ودرسَ آثارهـا ومقابرهـا وقُراهـا ومعبوداتهـا دراسـةً مفصّلـةً، وفي الفصـل الثـاني مـن الأطروحـة قـدّم المؤلـف قائمـةً مفصّلـةً للأسـماء البسـيطة في بنائها وشـكلها حسـب الأوزان العربيـة، وكشـفَ الباحـث أنّ الأسـماء العربيـة تمتـد جذورهـا إلى حـوالي القـرن السـادس قبـل الميـلاد إنْ لم يكـن أبعـد مـن ذلـك. وأرفـقَ قائمـةً بأسـماء الأعـلام والحيوانـات والأشـجار، وفي الفصـل الثالـث درسَ الأسـماء المركّبـة، هـذا هـو القسـم الأول مـن الأطروحـة الـذي اشـتمل عـلى ثلاثـة فصولٍ، أمـا القسـم الثـاني منهـا فقـد عَقَـدَ فيـه مقارنـةً بـين الأسـماء اللحيانيـة والسـامية، وبعـد تلـك المقارنـة اسـتنتج الباحـث العلاقـة القائمـة بـين الأسـماء اللحيانيـة

والسـامية الغربيـة التـي تعـود إلى الألـف الثـاني قبـل الميـلاد وكشـفَ الباحـث عــن أصالــة اللحيانيــين العــرب الذيــن تأثــروا بالأجنبــي، ولكنهــم اســتطاعوا أن يحافظـوا عـلى شـخصيتهم ولغتهـم كـما انعكـس ذلـك في أسـماء الأعـلام[1].

أما الدراسة السادسة فهي دراسة Stiehl.R وهي:

«**Neve Lihanisch Inschften Aus Al-uduib**» christentum Am roten meer, Berlin 1971.

إذ قامت بتفسير 40 نقشاً لحيانياً لم تُدرَس من قبل.

أما الدراسة السابعة فهي:

The early Lihyanite inscriptions Jassen- Savignac 49, Arabian studies in honor of Mahmavd Ghul (symposium at Yarmouk University 1989.

والدراسـة الثامنـة هـي لعبـد اللـه بـن آدم نصيـف (العُـلا دراسـة في الـتراث الحضـاري والاجتماعـي) وقـد نشرتهـا مكتبـة فهـد الوطنيـة في الريـاض سـنة 1995، وقـد دَرَسَ فيهـا مجموعـةً مـن النقـوش اللحيانيـة وتأريـخ مملكـة لحيـان.

والدراســة التاســعة هــي للدكتــور حســين بــن عــلي أبــو الحســن (قــراءةُ لكتابـات لحيانيـة مـن جبـل عكمـة بمنطقـة العـلا) نشرتهـا مكتبـة الملـك فهـد الوطنيـة في الريـاض سـنة 1997.

والدراســة العــاشرة كانــت للباحــث عمــر فيصــل ســليم الخــولي وعنوانهــا «**مملكـة لحيـان دراسـةُ في الأحـوال السياسـية والاجتماعيـة والدينيـة والاقتصاديـة**» وهــي رســالة ماجســتير مــن كليــة الآداب جامعــة البــصرة ســنة 2002 وبــإشراف الدكتــور منــذر البكــر.

أمــا مــا كتبــه كاســكل فهــو ليســت الدراســة التــي ترجمهــا الدكتــور منــذر البكـر فقـط، بـل هـي دراسـةُ مطوّلـةُ وقـد قـال عنهـا أحـد المعاصريـن «**محاولـة كاسـكل هـي أثريـةُ أكـثر منهـا تأريخيـةُ فقـد قـام بدراسـة 112 نقشـاً لحيانيّـاً سـبقه في ذلـك جوسـين وسـافينياك وأنّ مـا قدَّمـه كاسـكل يكتنفـه الغمـوض في تحليلاتـه واسـتنتاجاته لتأريـخ اللحيانيـين، فلـم يقـدّم أدلـةً تأريخيـةً فجـاءت**

(1) يوجد عرضٌ لهذه الأطروحة كتبه الباحث نفسه في مجلة كلية الآداب بجامعة الرياض مجلد 1 السنة الأولى سنة 1970 ص 428 - 431.

دراسة غيرَ عميقةٍ واعتمد على بعض الأسماء المُركَّبة واعتبرها آلهةً عُبِدَت عند اللحيانيين، ولكن لكاسكل الفضل في دراسة النقوش اللحيانية باللغة العربية، بعد أن درسها سابقوه بالحروف العبرية»[1].

إنّ مَنْ يقرأ بحوث كاسكل يجده يميل إلى التحليل والاستنتاج، فهو لا يعرض المادة العلمية فقط بل يحاول أن يعيد القراءة، ليعطي استنتاجاتٍ جديدةً، وهذا ما وجدته في بحوثه الأخرى، ولذلك قد تكون استنتاجاته غيرَ مُقنِعةٍ للآخرين وأنا واحدٌ منهم كما في بحثه عن الأخيضر مثلاً.

موقع لحيان وشعبها

تقع لحيان في وادٍ ضيّق بين صخورٍ عارية من الحجر الرملي الأحمر من جهة اليسار وأخرى مُغطّاة بغطاءٍ من اللافا Lava القاتمة[2] من جهة اليمين، ومن ناحية الغرب لا تبعد المدينة أكثر من مسيرة (خمسة أيام) عن البحر، ومن ناحية الشمال الغربي عبر الجبال يصل المرء إلى مِديَن، ومن خلال وادٍ في الشمال الشرقي يقودنا دربٌ إلى بلاد وادي الرافدين البعيدة لذلك فهي ملتقى التجار من أوربا وعرب الجنوب وعرب الشمال، ولهذا فالاتصال الحضاري واضحٌ في اللغة والكتابة والثقافة والفن[3].

وشعب هذه المملكة **«عاش في شمال الجزيرة العربية، وامتدت سلطته حتى شَمَلَتْ معظم شمال الجزيرة العربية وعلى عهد (أجاثا خيدس) سُمّي خليج العقبة بخليج (لحيان)، ومن أشهر مدنها مدينة ديدان، أما (الخُريبة) فهي جزء من مدينة (العلا) الحالية، وعلى بُعد كم شمالاً تقع المدينة الثانية وهي مدينة الحِجر، وقد عرفت بـEgra، Hegra عند الكُتّاب الكلاسيكيين، وهي على رأس (بيلينوس) عاصمة اللحيانيين، وقد وَرَدَ اسمها في القرآن الكريم بـ(الحِجر)، وهي التي كانت فيها قبيلة (ثمود) قوم نبي الله صالح، ولذلك عُرِفَتْ باسم (مدائن صالح)»**[4].

---

(1) مملكة لحيان دراسةٌ في الأحوال السياسية والاجتماعية والدينية والاقتصادية- عمر فيصل خولي، رسالة ماجستير، كلية الآداب جامعة البصرة سنة 2002 صفحة ج.

(2) أي الحجر البركاني الذي يتحوّل إلى اللون الأسود.

(3) يُنظر دراساته في تأريخ العرب قبل الإسلام ص 380.

(4) المصدر نفسه 382.

أمـا تيـماء فهـي كذلـك حـاضرةً مـن حـواضر اللحيانيـين، وبهـذا سـتكون مملكـة لحيـان مشـتملةً عـلى ديـدان والعـلاء ومدائـن صالـح والحِجـر وتيـماء، وقـد ذُكِـرتْ تيـماء في التـوراة في سـفر أشـعيا الإصحـاح 21: 13 والنـص هـو «**في الوعـر في بـلاد العـرب تبيتـين يـا قوافـل الدَّرانيـين، هاتـوا مـاءً لملاقـاة العطشـان، يـا سـكّان أرضِ تيـماء وأفُـوا الهـارب بخبـزه**» وفي سـفر حزقيـال الإصحـاح 25: 13 النـص هـو «**هكـذا قـال السـيّد الـرب مـن أجـل أنّ أدوم قـد عَمـلَ بالانتقـام على بيـت يهـوذا وأسـاء إسـاءةً وانتقـمَ منهـم، لذلـك هكـذا السّـيد الـربّ وأمـدُّ يـدي عـلى أَدم وأقطـع منهـا الإنسـان والحيـوان وأُصيرِّهـا خرابـاً مـن التيمّـن وإلى دران يسـقطون بالسـيف...**».

وقـد حـاول الباحثـون تحديـد زمـن مملكـة ديـدان إذ حدّدَهـا «**غريمـه Grimme مـا بـين القـرن السـادس ق. م والقـرن الخامـس ق.م إلى نهايـة القـرن الثالـث ق.م وقـد ذهـب كاسـكل إلى أنّ ابتـداء حكـم مملكـة ديـدان كان حـوالي عـام 160 ق.م، غـير أنهـا لم تسـتمر طويـلاً إذ سرعـان مـا سَـقَطتْ في أيـدي اللحيانيـين الذيـن كانـوا مجاوريـن لمدينـة ديـدان حـوالي عـام 150 ق.م وكان ذلـك في حـوالي عـام 115 ق.م**»[1].

وهـذا يعنـي أن حكـم الديدانيـين كان سـنة 160 ق.م، أي بعـد إنتهـاء حكـم مملكـة المعينيين، ولكـن حكـم الديدانيـين لم يسـتمر طويـلاً إذ ظهـر اللحيانيـون وحكمـوا مـا بـين 115 ق.م- 85 ق.م، فبعدهـا سـيطر الأنبـاط عـلى مملكـة لحيـان.

وديـدان التـي حكمهـا اللحيانيـون أصبحـت عاصمـةً لهـم وهـي «**واحـدة من مناطـق الاسـتقرار الرئيسـية في شـبه الجزيـرة العربيـة، تقـع في وادي القـرى جنـوب شرق حـرّة عويـرض في وادٍ ضَيِّـق بـين سلسـلةٍ مـن الجبـال في الـشرق والغـرب عـلى بُعـد 22 كـم جنـوب مدائـن صالـح (الحِجـر) ومـن ناحيـة الغـرب تبعـد ديـدان مسـيرة خمسـة أيـامٍ عـن البحـر الأحمـر. ويحدهـا مـن الشـمال الغـربي أرض مِديَـن، وأهميـة موقـع ديـدان تكمـن في أنهـا تقـع للقـادم مـن الجنـوب عنـد**

(1) المصدر نفسه 380.

مفترق طرق شمالية (مدائن صالح، تبوك، بترا) وشمالية غربية نحو واحة تَيماء، والمركزان إما متنافسان أو متكاملان ويَتَّجه الأول نحو الشمال والثاني نحو الشرق، أي «بابل»»[1].

أما عن منازل لحيان فيقول الدكتور منذر البكر «**ويظهر أنَّ منازل لحيان عند ظهور الإسلام أرضٌ جبليةٌ غزاها الرسول ﷺ بغزوة عُرِفتْ (بغزوة بني لحيان) وذلك يوم الثلاثاء غرّة جُمادى الأولى فاعتصموا برؤوس الجبال وهَجَمَ الرسول ﷺ على طائفةٍ منهم على ماء لهم يقال له (الكَدَر)... كما استعمل اللحيانيون بيوتاً عاليةً والسبب راجع لضيق الوادي، لأنَّ اتساع المدينة سيكون على حساب الأراضي الزراعية الصالحة للزراعة ولا تزال آثار الريّ القديمة ظاهرةً لحد الآن**»[2].

وديدان كانت قد تعرَّضَتْ لغزو الملك البابلي نابونيد سنة 556- 539 ق.م أي في النصف الأول من القرن السادس قبل الميلاد وتُعرَف حاليّاً العُلا أو الخُريبة، وقد اتخذها الملك البابلي نابونيد عاصمةً لحكمه لمدة عشر سنواتٍ[3].

آلهة لحيان

يقول كاسكل «**في ديدان اللحيانية عبدوا ثلاثة آلهةٍ وإلهةً واحدةً، والإله الرئيسي عربيٌّ صرفٌ، ذُكر بلقبه فقط، وهو الإله (ذو غابت أي سيد الأحراش) وكان نمو أشجارٍ كثيفةٍ في شبه الجزيرة العربية أمراً نادراً، إذ إنّ مثل هذا المكان يكفي لأن يرسم في الخيال بأنّ هناك قوةً إلهيةً موجودةً. ويتوسَّط معبد الإله (ذو غابت) مدينة ديدان، وفي فنائه الواسع الداخلي يرتفع حوضٌ للماء إلى أكثر من مترين، وقد نُحِتَ من الصخور الرملية الطبيعية، ويقود إلى داخل المعبد سُلّمٌ، ووجود حوض الماء يمكن أن يكون للاغتسال والطهارة لأجل العبادة، وفي إحدى القاعات التي تحد الفناء من الشمال صفٌّ من التماثيل، وعلى الجهة المقابلة يوجد تمثالان بحجم الإنسان الطبيعي وكُلٌّ**

(1) مملكة لحيان، عمر فيصل خولي ص1.

(2) دراسات في تأريخ العرب قبل الإسلام ص388.

(3) مملكة لحيان عمر فيصل خولي ص1.

القرابـين والنـذور تُقـدَّم إلى جميـع الإلهـة لا للإلـه (ذو غابـت) وحـده غـير أنّ الآلهـة الأخـرى تعتـبر ضيوفـاً»[1].

ولكـن رأي كاسـكل هـذا عارضـه رأيٌ آخـرُ للدكتـور الأنصـاري الـذي «**يعتقـد أنّ اسـم الإلـه (ذو غابـت) إمّـا أن يكـون صاحـب الغابـة لخصوبـة منطقـة ديـدان ومـا حولهـا أو بمعنـى إلـه السـماء أي الإلـه الغائـب، بينـما يعتقـد موسـل إنّ الإلـه ذو غابـت لـه صِلـةٌ بالقوافـل التجاريـة، وهـي محاولـة تربـط مـا جـاء في التـوراة**»[2]، ويـرى أحـد الباحثـين «**أنّ الاسـم ذو غابـت صفـةٌ لإلـه القمـر، أي أنـه الإلـه الـذي يظهـر ويغيـب، لأنّ القمـر مـن الكواكـب التـي تظهـر في الليـل وتغيـب في النهـار ويظهـر في منتصـف الشـهر كبـدر ويغيـب في أولـه وآخـره، لذلـك أطلـق عليـه اللحيانيـون (ذ غ ب ت) بمعنـى ذو الغيبـة**»[3].

ولكـن عنـد التتبـع لآلهـة لحيـان نجـد أنّ الآلهـة المعبـودة عندهـم عديـدةٌ وهي[4]:

1 -من المعبودات الشمسية (الإله شمس، واللاَّت)

2 -من المعبودات القمرية (مَنّاة)

3 -مـن المعبـودات الأخـرى (سـلمان، سـواع، صلـم، عـوس «**عيسى**»، كاتـب، مُحـرٌّ، نـصر، هانـئ، همحـر، هنا-كتـب، هـين-أس، يهـوة).

فمثـلاً (سـواع): هـو مـن الأصنـام الأولى التـي عبدهـا العـرب وكان مكانـه برهـاط مـن أرض يَنبُـع مـن أعـراض المدينـة وكان سـدنته بنـو لحيـان[5].

و(الشـمس): وهـو الإلـه الرئيـس في شـمال الجزيـرة العربيـة وفي معظـم الدويـلات العربيـة الشـمالية، حتـى أن الحَـضَر عُرِفَـتْ بمدينـة الشـمس. وقـد وَرَدَ في النقـوش الثموديـة وعَبَـدهُ التدمريـون واللحيانيـون والشـمس عنـد عـرب الجنـوب مؤنثـة[6].

---

(1) لحيان المملكة العربية القديمة ص186.

(2) شمال الحجاز، للمستشرق موسل ص186.

(3) مملكة لحيان عمر خولي ص53.

(4) هذا الأمر قد فصّلناه في كتابنا (خريطة عبادات العرب قبل الإسلام)، دار جيكور بيروت ط1 سنة 2016.

(5) ينظر المصدر نفسه 285.

(6) ينظر المصدر نفسه 287.

و(صلم): وهو معبودٌ آراميٌّ وعربيٌّ جنوبيٌّ كان يُعبَد في لحيان وكان من عبادات أهل تيماء، وتَدلُّ بعضُ الأسماء المركّبة الواردة في الكتابة اللحيانية مثل صلم بهب على أنه معبودٌ عند اللحيانيين ورُمِزَ له برأس ثورٍ في كتابات ثمود[1].

وهكذا بالنسبة للآلهة والمعبودات الأخرى التي ذكرناها.

تجارة لحيان مع الشرق

ذكرنا فيما سبق أنّ لحيان (ديدان) تقع عند مفترق طرقٍ إلى الشمال، ففي الشمال مدائن صالح وتبوك والبتراء، وإلى الشمال الغربي واحة تيماء. ونحو الشرق بابل والعراق، ولذلك ((وَسَّع اللحيانيون تجارتهم قديماً إلى الشرق، إلى المنطقة التي أُنشِئت فيها في القرن الثالث الميلادي (مدينة الحِيرة) التي تقع على جانب نهر الفرات على بُعد 150 كم جنوب بغداد وفي مدينة الحيرة هذه توجد ذكرياتٌ عن اللحيانيين، كما يُوجَد حيٌّ في المدينة باسم لحيان إلى القرن السابع الميلادي[2]. وهذا ليس هو الأثر الوحيد الذي خلّفهُ أو تركه اللحيانيون في الشرق، فعلى بعد 175 كم جنوب الحيرة وعلى الطريق التجاري القديم... وأخيراً طريق الحُجّاج غرب شبه الجزيرة العربية تقع محطةً للقوافل التجارية تُعرف باسم محطة سلمان[3]، الاسم الذي لم يرد ذكره كثيراً بين أسماء المناطق العربية، والظاهر أنّ هذه المحطة سُمّيت باسم الإله سلمان اللحياني، وهو حارس القوافل التجارية، إذ أنّ التجّار اللحيانيين أنشأوا لهم في هذه المنطقة مكاناً للعبادة، وقد عَبَدَ البدو في القرن السادس الميلادي في هذه المنطقة إلهاً آخر وهو الإله

(1) ينظر المصدر نفسه 288.

(2) جاء في تأريخ الطبري (تأريخ الرسل والملوك) تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت سنة 1409 هـ - 1 / 749 أنّ لحيان دلّ عليه من خلال أبياتٍ شعريةٍ منسوبةٍ إلى حاتم الطائي، ومعنى لحيان قصر في الحيرة، ويقول ياقوت: في معجم البلدان 5/ 15 وهو أبيض، بناه النعمان له بالحيرة، وقال حاتم الطائي:

وما زلتُ أسعى بين خصٍّ وداره ... ولحيان حتى خفتُ أن أتنصَّرا

(3) ماءُ على طريق مكة من العراق قال أبوزيد وأنشد:

ومات على سلمان سلمى بن جندلٍ ... وذلك ميت ما علمتُ كريمُ

ورواه غيره (لو علمتُ كريم) قال أبو زيد: وبسلمان مات نوفل بن عبد مناف، راجع البكري معجم ما استعجم 3 / 750. وهو حالياً في بادية السماوة في العراق ويُسمَّى نُقرة السلمان.

المُحـرَّق، وذلـك لأنّ المـكان المقـدّس تبقـى قدسـيته أمـا الآلهـة فتتغـير»[1].

والحـي الـذي اسـتقرّ بـه اللحيانيـون في الحِـيرة كان خاصّـاً بالتجّـار اللحيانيين الذيـن اسـتقروا في بدايـة القـرن الثالـث الميـلادي في الحِـيرة، واسـتمروا في وجودهـم هنـاك إلى القـرن السـابع الميـلادي، وعـلى الطريـق التجـاري القديـم كانـت محطـة القوافـل (السـلمان) نسـبة إلى اسـم الإلـه اللحيـاني (سـلمان) حـارس القوافـل التجاريـة ويبـدو أن الكنيـة التـي يحملهـا هـي (أبـو إيـلاف) وهـو ربّ القوافـل عندهـم[2].

وتمثّـل هجـرة اللحيانيـين أهـم الهجـرات إلى العـراق، إذ اسـتقروا فيـه فـترةً طويلـةً، ولكـن كاسـكل لم يذكـر شـيئاً عـن القبائـل التـي سَـكَنَتْ غـرب العـراق وخاصـة مناطـق الأنبـار والحـيرة وكربـلاء وقـد أورد أحـد الباحثـين المعاصريـن تفاصيـل ذلـك بقولـه «**قـال ابـن الكلبـي: لحيـان بقايـا جُرهُـم ونـزول كثيـرٍ مـن تنـوخ الأنبـار والحِيرة ومـا بـين الحِيرة إلى طـف الفـرات وغربيّـه إلى ناحيـة الأنبـار ومـا والاهـا في المظـال والأخبيـة، لا يسـكنون بيـوت المَـدَر ولا يجامعـون أهلهـا فيهـا، واتصلـت جماعتُهـم فيـما بـين الأنبـار والحـيرة، وكانـوا يُسـمَّون (عـرب الضاحيـة) فـكان أول ملـك منهـم في زمـان ملـوك الطوائـف، مالـك بـن فهـم وكان منزلـه مـما يـلي الأنبـار، فمَلَـكَ مـن بعـده أخـوه عمـرو بـن فهـم ثـم هَلَـكَ عمـرو بـن فهـم فمَلَـكَ مـن بعـده جُذيمـة الأبـرش بـن مالـك بـن فهـم بـن غانـم بـن دوس الأزدي.**

وقـال ابـن الكلبـي: دوس بـن عدنـان بـن عبـد اللـه بـن نـصر بـن زهـران بـن كعـب بـن الحـارث بـن كعـب بـن عبـد اللـه بـن مالـك بـن نـصر بـن الأزد بـن الغـوث بـن مالـك بـن زيـد بـن كهـلان بـن سـبأ، وقـال أيضـاً: إنّ جذيمـة الأبـرش مـن العاربـة الأولى مـن بنـي ديـار بـن أميـم بـن لـوذ بـن سـام بـن نـوح وقـال: وكان جذيمـة مـن أفضـل ملـوك العـرب رأيـاً وأبعدهـم مغـاراً وأشـدَّهم نكايـةً وأظهرهـم حزمـاً، وأول مَـنْ اسـتُجمِع لـه الملـك بـأرض العـراق وضَـمَّ إليـه العـرب وغـزا بالجيـوش وكان بـه بـرصٌ، فكَنَّـت العـرب عنـه وهابـت العـرب أن

(1) لحيان المملكة العربية القديمة، كاسكل ص193.

(2) يُنظر دراساتٌ في تأريخ العرب قبل الإسلام ص387.

تُسمِّيه بـه وتنسبه إليـه إعظامـاً لـه، فقيـل جُذيمـة الوضّـاح وجذيمـة الأبـرش. انتهـى، وكانـت منازلـه فيـما بـين الحِيرة والأنبـار أي (مدينـة النهريـن) وضواحيهـا وبقـة وهيـت وناحيتهـما وعـين التمـر وأطـراف البحـر إلى العمـير والقطقطانـة وخفيـة ومـا والاهـا، وتُجبـى إليـه الأمـوال وتفـد إليـه الوفـود، وكان قـد غـزا طسـماً وجديسـاً في منازلهـم مـن جـو ومـا حولهـم وكانـت طسـم وجديـس يتكلمـون العربيـة، ونـرى أنّ جرهـم عندمـا نزلـت بـين الحـيرة والأنبـار، وهـي الأراضي الاسـتيطانية التابعـة إلى كربـلاء حاليّـاً، سُـمّوا بعـرب الضاحيـة، أي أنهـا ضاحيـة كربـلاء في الوقـت الحـاضر، ويتضّـح لنـا أن مالـك بـن فهـم هـو أول مَلِـك سَـكَن منطقـة الأخيـضر وكربـلاء. ولذلـك نـرى أن الروايـة قـد ذكـرت مسـكنه مـما يـلي الأنبـار، ولهـذا فـإنّ أول دولـة مـن ملـوك الطوائـف أُقيمـت في ضاحيـة كربـلاء قبـل الأنبـار والحِيرة وبالتحديـد في منطقـة الأخيـضر، وشرق نهـر الفـرات (فـرات كربـلاء) ثـم توسـعوا إلى ضفـة نهـر الفـرات.

وبعـد ذلـك صـار المُلـك مـن بعـد جُذيمـة لابـن أختـه عمـرو بـن عـدي بـن نـصر بـن ربيعـة بـن الحـارث بـن مالـك بـن عمـرو بـن نمـارة بـن لخـم[1]. وهـو أول مَـنْ اتَّخـذَ الحِيرةَ منـزلاً مـن ملـوك العـرب وأول مَـنْ مجَّـدهُ أهـلُ الحـيرة في كتبهـم مـن ملـوك العـرب بالعـراق وإليـه ينسـبون، وهـم ملـوك آل نـصر، فلـم يـزل عمـرو بـن عـدي ملـكاً حتـى مـات وهـو ابـن مئـة وعشريـن سـنة مُنفـرِداً بملكـه مُسـتبدّاً بأمـره بغـزو المغـازي.

ومـن ذلـك يتضـح أن الاسـتيطان في ضاحيـة كربـلاء (بـلاد النهريـن) قـد سَـبَق الاسـتيطان بالحـيرة والأنبـار مـن قبـل ملـوك العـرب، لـذا فـإنّ أول الهجـرات العربيـة إلى العـراق قـد اسـتقرّت واسـتوطنت كربـلاء وضواحيهـا»[2].

الأنباط ولحيان

بعـد الضعـف الـذي ظهـر عـلى مملكـة لِحيـان، سَـيطَرَ الأنبـاط عليهـا في الفـترة 25- 10 ق:م؛ وإنّ «**أول إشـارةٍ واضحـةٍ تشـير إلى مـدى قـوة الأنبـاط ترجـع**

(1) ينظر تأريخ الطبري 2/ 37

(2) كربلاء عبر التأريخ (جغرافية مدينة النهرين خلال ستة وعشرين عاماً)، مهنا دويش المطيري مطبعة الزمان بغداد سنة 1994 ص122.

إلى القرن الرابع ق.م. قبل هذا التأريخ لا تشير المصادر التأريخية لدور الأنباط في المنطقة، ما يجعلنا نرجّح القولَ أنّ الأنباط ظهروا على المسرح السياسي حوالي القرن الخامس ق.م: ويبدو أنه في القرن الرابع أو الثالث ق.م. أصبح للأنباط قوةٌ تجاريةٌ وسياسيةٌ فَرَضت نفسها، وبالتالي حدّدت طبيعة قوة الأنباط ما جعلها دولة منافسة للبطالمة والسلوقيين، الأمر الذي دفع الأنباط للسيطرة على منطقة النقب منذ القرن الثالث ق.م. وقد حَدّدَ القرن الثالث ق.م. طبيعة العلاقات الدولية في تلك الفترة التي تزامنت مع ظهور قوتين متنافستين متصارعتين وهما البطالمة والسلوقيين وقد أثّر هذا بشكلٍ على سَير العلاقة اللحيانية النبطية في الشمال الغربي لشبه الجزيرة العربية، وبالتالي أصبَحَ اللحيانيون حلفاء للبطالمة والأنباط حلفاء للسلوقيين، ويبدو أنّ هذا التحالف دَخَلَ في نطاقٍ عسكريٍّ واقتصاديٍّ أيضاً»[1].

وهذا الأثر النبطي سينعكس مستقبلاً على اللغة اللحيانية، فالكتابة اللحيانية كما يرى كاسكل ليس لها شبيهٌ في المنطقة، أي أنها نوعٌ جديدٌ من الكتابة ولكنها وفق قوله: «**تعتبر بدايةً سابقةً للغة العربية الكلاسيكية، التي لها اتصالٌ باللغة العربية الحالية، وبطبيعة الحال تنقص اللحيانية مجموعة تعبيرات العالم البدوي، والتي أفادت منها العربية الكلاسيكية في تعبيراتها واستعمالاتها وصيغها، وإن القيم البدوية سواءً اعتبرِتْ حضاريةً أم غير حضاريةٍ، والتي أحلّت الشعر محل الكتابة تقع في المرحلة التي أعقبت المرحلة اللحيانية**»[2].

ولعلّنا نقول: إنّ هذا الرأي يحتاج إلى ما يسندهُ وخاصةً قوله أنّ تلك الكتابة (اللحيانية) وخاصةً في مراحلها الأخيرة لها اتصالٌ باللغة العربية الحالية، وهذا أمرٌ مُشكِلٌ لأنّ الكتابة اللحيانية شيءٌ واللغة اللحيانية شيءٌ آخرُ، وهو يجمع بين الإثنين، فاللغة هي وعاء الفكر والحياة والثقافة، والكتابة هي الواسطة لنقل تلك اللغة وليست هي اللغة نفسها، فالكتابة اللحيانية هي أقرب لخط المسند الجنوبي والعربية الكلاسيكية هي بصورةٍ

(1)مملكة لحيان، عمر خولي، ص27.

(2) لحيان المملكة العربية القديمة، ص195.

مباشرةٍ وغيرِ مباشرةٍ متطورةٌ من الخط النبطي، وهو «**مُشتقٌّ أصلاً من الآرامية، وأصبح يبتعد شيئاً فشيئاً عن أصله الآرامي حتى تميّز منه وأصبح يُعرَف بالخط النبطي والذي بدوره تطّور في حدود القرن الثالث الميلادي إلى الخط المألوف في لغة عرب الشمال لغة القرآن الكريم ولغة العصر الحاضر**»[1].

وهذا الخط أي الشمالي هو الذي كُتبت به المُعلّقات التي ينتمي كل شعرائها إلى عرب شمال الجزيرة العربية لا لجنوبها، وهذا الخط كان على نوعين «**من الكتابة النبطية أُطلق على النوع الأول الخط النبطي القديم وهو أشبه بالخط الكوفي حيث تكثُرُ به الزوايا والخطوط المستقيمة وكان يُنحَت عن الصخور ويُدوّن على النقود، أما النوع الثاني وهو الخط النبطي المتأخر فهو أقرب إلى الخط العربي الحديث ويمتاز بربط حروفه مع بعضها ومنه اشتقَّ الخط العربي الذي نكتب به اليوم**»[2].

وهذا الخط هو الذي انتقل إلى الحيرة التي أصبَحَتْ وريثة تلك الممالك وكانت فيما بعد «**المدرسة التي تعلّمَ منها كُتّاب الحجاز القلم الذي دُوِّن به القرآن الكريم على ما يذكر أهل الأخبار**»[3]، ونبغَ فيها عددٌ كبيرٌ من العلماء النصارى قبل الإسلام وكانت في كنائسها ودياراتها وفي قصور ملوكها سجلاتٌ ودواوينُ فيها أخبار[4] من مَلَكَ تلك المدينة وما قيل فيهم من شعرٍ[5].

ويذهب رأيٌ آخرُ إلى أنّ الكتابة اللحيانية لا تعود إلى الخط المسندي الجنوبي بل أخذتْ لحيان بالخط الشمالي لأنها «**عاشت في شمال الحجاز**

(1) النظرية النبطية حول أصل الخط العربي الحديث، هاشم طه رحيم، مجلة واسط للعلوم الإنسانية العدد 10 ص 139.

(2) المصدر نفسه ص141

(3) يُنظر نهاية الأرب 7 / 3، والمُزهر للسيوطي 2 / 343، الفهرست لابن النديم ص4 وعيون الأخبار 1 / 43، المعارف 273، نقلاً عن أبحاث في التأريخ الإسلامي وهو مجموعة بحوث الدكتور جواد علي جمعها ودرسها وراجعها الدكتور نصير الكعبي نشر المركز الأكاديمي للأبحاث ودار الجمل بيروت سنة 2011 مجلد 2 / 362.

(4) قال الطبري، 2/ 37: «كنتُ أستخرج أخبار العرب وأنسابهم وأنساب آل نصر بن ربيعة ومبالغ أعمار مَنْ وَلِيَ منهم لآل كسرى وتأريخ نسبهم من كتبهم بالحيرة» ويُنظر كذلك الخصائص لابن جني 1 / 393، وتاج العروس 2 / 70، وطبقات الشعراء ص10، والمُزهر 2 / 474.

(5) أبحاثٌ في التأريخ الإسلامي، د. جواد علي 2 / 362.

وكانـت ثقافتهـم وريثـة ثقافـة ديـدان وثمـود الذيـن تَعرَّضـوا لتأثير الثقافـة العراقيـة بعـد اسـتيلاء نبوئيـد عـلى هـذه المناطـق حتـى يـثرب، فقـد اتخـذَ الملـك نبوئيـد تيـماء عاصمـةً لـه بـدلاً مـن بابـل مـا يزيـد عـلى عـشر سـنواتٍ 555- 539 ق.م أي بعـد اسـتيلاء كـورش الفـارسي عـلى بابـل»[1].

وهــذا الاختــلاط اللحيــاني مــع الثقافــة البابليــة وإنتهــاءً بالحِــيرة سـيؤدي مســتقبلاً إلى ظهــور ذلــك الخــط المنقــول إليهــم عــبر الأنبــاط، فهــذا الأمــر وارد وبشــكلٍ كبــيرٍ إذ يقــول الدكتــور جــواد عــلي: «**أمـا موضـوع أخـذ أهـل مكـة خَطِّهـم المذكـور مـن العـراق فـرأيٌ لا أسـتبعده، فقـد كان عـرب العـراق يكتبـون، ولهـم مـدارسُ لتعليـم الكتابـة مُلحقـة بالكنائـس والأديـرة، وقـد كان بـين أهـل مكـة وبـين عـرب العـراق ولا سـيما الأنبـار والحـيرة اتصـالٌ وثيـقٌ، وكان تجّـار مكـة يأتـون بتجارتهـم إلى الحـيرة ويقيمـون فيهـا، فـلا يُسـتبعد تعلّمهـم أو تعلّـم بعضهـم الخـط مـن أهـل الحيرة ومـن أهـل الأنبـار، كـما أنّ للتبشـير يـدٌ في نقـل هـذا الخـط إلى الحِجـاز وربمـا إلى مواضـع أخـرى مـن جزيـرة العـرب، وقـد كان هـؤلاء المبـشّرون يكتبـون بقلـمٍ نبطـيٍّ أو بقلـمٍ آرامـيٍّ متأخـرٍ وهـو والـد القلـم النبطـي الـذي نكتـب بـه، وقـد يكـون المبـشرون مـن أهـل العـراق نشـيطين في التبشـير في جزيـرة العـرب فـلا يُسـتبعَد أن يكـون مـن بينهـم مبـشرون حيريـون نقلـوا الكتابـة إلى دومـة الجنـدل والحجـاز ومواضـع أخـرى مـن جزيـرة العـرب»**[2].

هــذا الانتقــال في الخــط وتطــورَّه، ذكــره ابــن خلــدون، ولكنــه للأســف كان يحــاول أن يَنسِــبَ أصــل الخــط الحــيري إلى حِمــيرَ إذ يقــول «**ومـن الحِـيرة انتقـل الخـط ولقّنـهُ أهـل الطائـف وقريـش، ويُقـال أنّ الـذي تعلّـم الكتابـة مـن الحـيرة هـو سُـفيان بـن أميـة ويُقـال حـرب بـن أميّـة، وأخذهـا منـه أسـلم بـن سـدرة... فالقـول بـأنّ أهـل الحِجـاز لُقّنوهـا مـن الحِـيرة، والحِـيرة مـن التابعـة وحِمـير هـو الأليـق مـن الأقـوال»**[3].

وقــد يكــون كلام ابــن خلــدون هــو المؤُثــر في توجّــه البعــض الــذي يعتقــد بالأصــل الجنــوبي للخــط. وإلاّ فهــل مــن المعقــول أن تنشــأ علــوم العربيــة عــلى

(1) ينابيع اللغة الأولى، سعيد الغامي، المركز الثقافي العربي، بيروت، سنة 2009، ص215.

(2) المفصّل في تأريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، دار العلم للملايين، بيروت سنة 1969، 8 / 60.

(3) مقدمة ابن خلدون، دار العلم للملايين، بيروت 2 / 60.

يـد العراقيـين بعـد الإسـلام بصـورةٍ كبـيرة دون وجـود إرهاصـات لذلـك، ولـذا يقـول الدكتـور جـواد عـلي: أنـه «**لا يُعقـل أن يكـون ظهـور علـوم العربيـة في العـراق قبـل الأمصـار الإسـلامية الأخـرى طفـرةً مـن غـير سـابقة ولا أسـاس، وأن يكـون تفـوق الكوفـة والبـصرة عـلى المـدن الإسـلامية الأخـرى ومـن ضمنهـا مُـدن الجزيـرة العربيـة في علـوم العربيـة مصادفـة وفجـأةً مـن غـير علـمٍ سـابق ولا بحـث في هـذه الموضوعـات قبـل الإسـلام: أننـي اعتقـد أن علـم العـروض وعلـم النحـو وعلـم الـصرف وسـائر علـوم العربيـة الأخـرى لم تظهـر في العـراق إلاّ بوجـود أسـس لهـذه العلـوم فيـه تعـود إلى أيـام مـا قبـل الإسـلام، وهـذه الأسـس القديمـة الجاهليـة هـي التـي صـيّرت العـراق الموطـن الأول لهـذه العلـوم في الإسـلام**»[1].

البدو ودورهم في الصراع السياسي

حـاول فيرنـر كاسـكل في مبحثـه هـذا أن يسـلّط الضـوء عـلى قـوة البـدو العسـكرية ودورهـا في نشـوء الكيانـات السياسـية في الجزيـرة العربيـة، وقـد أعطـى ثلاثـة أمثلـةٍ لذلـك، وهـي دور البـدو أو (الأعـراب) في نـشر الإسـلام وخاصـةً في مناطـق شـمال الجزيـرة العربيـة إذ كانـت «**الطلائـع الأولى للجيـش حجـر الأسـاس للعـرب في المناطـق التـي حرّروهـا فقـد تبعتهـم عوائلهـم إلى المناطـق التـي عسـكروا فيهـا وفي مـدةٍ متأخـرةٍ هاجـرت جماعـةُ أخـرى اسـتوطنت أعـالي الفـرات واسـتقرّ قسـمٌ منهـا في مـصر بتوجيـهٍ مـن السـلطة المركزيـة واندفعـوا في مـدةٍ تاليـةٍ باتجـاه الشـمال... وهـذا يتَجـلَّى واضحـاً في الأمصـار التـي أُنشِـئتْ حديثـاً- البـصرة والكوفـة والقاهـرة القديمـة،... وقـد أدّى وجـود العصبيـة القبليـة إلى اسـتمرار الـصراع بـين قبائـل بكـر وتميـم في البـصرة وهـو اسـتمرارُ للـصراع القديـم في عصـور مـا قبـل الإسـلام، وكذلـك الحـال في الكوفـة، أمـا في القاهـرة القديمـة فـلا نجـد وجـودًا للـصراع القبـلي لأنّ القسـم الأعظـم مـن سـكانها مـن أصـول يمانيـة**»[2]، والـصراع والعصبيـة القبليـة هـو مـا اعتمـده الأمويـون الذيـن تصاهـروا مـع قبائـل كلـب التـي عـبرت الصحـراء السـورية قادمـةً مـن وسـط الجزيـرة العربيـة، وبعـد ذلـك ظهـر الـصراع بـين قبائـل كلـب المؤيّـدة للحكـم

(1) المفصّل في تأريخ العرب قبل الإسلام، 8 / 228.

(2) الدور السياسي للبدو في التأريخ، كاسكل ص81.

الأمـوي وقبائـل قيـس المؤيـدة لابـن الزبـير وذلـك سـنة 684 م»[1].

ويسـتطرد كاسـكل في إعطـاء أمثلـة عـن الـصراع القبـلي في بدايـة الإسـلام، فالرجـل لـه خـبرةٌ واسـعةٌ في الأنسـاب والقبائـل وأماكـن وجودهـا.

أمـا المثـال الثـاني الـذي يـأتي بـه كاسـكل فهـو حركـة القرامطـة وأثـر العصبية القبليـة في تطورهـا وامتدادهـا في رقعـةٍ واسـعةٍ مـن شـمال الجزيـرة العربيـة وأثرهـا في الهجـرة البدويـة.

والمثـال الثالـث الـذي أتى بـه كاسـكل هـو ظهـور الحركـة الوهابيـة ودورهـا في الهجـرة البدويـة إلى شـمال الجزيـرة العربيـة، ودور البـدو في إظهـار ومسـاندة هـذه الحركـة وامتدادهـا.

هـذه الأمثلـة التـي عرضهـا كاسـكل كان للبـدو الـدور الكبـير في امتدادهـا وتوسّـعها وأثرهـا عـلى الحيـاة الاجتماعيـة والسياسـية في العـراق، وخاصـةً جـزءه الغـربي والجنـوبيّ الغـربي، إذ أدَّتْ إلى التأثـير الكبـير عـلى النسـيج الاجتماعـي والحضـاري في العـراق بسـبب موجـات تلـك القبائـل البدويـة الصحراويـة، وهـو الـذي أدّى إلى ظهـور الـصراع الحـضري البـدوي في العـراق وأدّى إلى تصـارع القيـم بينهـما، مـا جَعَـلَ العـراق سـاحةً للصراعـات الكبـيرة، لأنّ العـراق كان في السـابق حـاضرةً مدنيـةً، وتلـك الموجـات البدويـة قـد تَركَـتْ آثـاراً كبـيرة ولكـن الأمـر في سـوريا كان أقـلّ حـدّة مـمّا كان في العـراق.

هـذا الـصراع القبـلي البـدوي وتفصيلاتـه التـي بحثهـا كاسـكل في كُتيِّـبٍ لـه صـدر عـام 1952 كان قـد ترجمـه الدكتـور منـذر البكـر عـام 1988، واعتقـد أنـهُ قـد أثّـر في الدكتـور البكـر الـذي كتـب بحثـاً عـن «**الـصراع السـياسي والاقتصـادي حـول السـلطة في العـصر الأمـوي**» وأفـاد مـن فكـرة كاسـكل، فقـد رأى البكـر أنَّ هـذا الـصراع لم يكـن قبليّـاً وبدويّـاً فقـط بـل كان صراعـاً ثلاثيّـاً كانـت نتائجـه كبـيرة عـلى العـراق وخاصـة في كربـلاء، لأنّ هـذا الـصراع تمثّـل بفئـات ثـلاث هـي:

1. الارسـتقراطية العربيـة، وهـي الفئـة التـي تَحكَّمـت بالأمـوال المُسـتثمَرَة في التجـارة قبـل ظهـور الإسـلام وخاصـة في مكـة، وأفـادت مـن الوضـع السـياسي

(1) المصدر نفسه، ص82.

في الإسـلام وكان سـكانها لا يهتمـون بغـير التجـارة وجمـع المـال حتـى في بدايـة دخولهـم الإسـلام، وكانـت هـذه الفئـة قـد وقفـت موقفـاً معاديـاً مـن الإسـلام ويمثـل هـذا الاتجـاه بنـو (أميـة وعثـمان بـن عفّـان) وأنّ انتخـاب الأخـير للخلافـة كان نجاحـاً كبـيراً لهـذه الفئـة، وقـد نمَـتْ هـذه الفئـة اقتصاديّـاً وسياسـيّاً في عهـد عثـمان نمـوّاً لا مثيـلَ لـه، إذ أهـدى إقطاعيـاتٍ كبـيرةً لبعـض أقربائـه وزاد العطـاء لهـم، وهـذه الإجـراءات شَـجَّعت هـذه الفئـة عـلى اسـتعادة مجدهـا الاقتصـادي والسياسي القديـم ومـن أفـراد هـذه الفئـة معاويـة وآل مـروان[1].

2. الارسـتقراطية الإسـلامية، وهـذه الفئـة تمُثّـل الطبقـة الوسـطى مـن المجتمـع وخاصـةً في المدينـة وشـيوخ بعـض القبائـل وأشرافهـا والمزارعـين.

3. أمـا الفئـة الثالثـة، فهـي تضـم المُسـتَضعَفين والفقـراء والعبيـد و... التـي وجـدت في الإسـلام المُنقِـذ مـن الفاقـة والجـوع، مـن هـذا المنطلـق كانـت هـذه الفئـة تقـف دائمـاً موقـف المعـارض لأيِّ اسـتغلال اقتصـاديٍّ، ووراء أيِّ ثـورةٍ أو تمـرّدٍ اجتماعـيٍّ ضـد التسـلّط الطبقـي.

أدى الـصراع بـين هـذه الفئـات إلى تناقـضٍ اقتصـاديٍّ واجتماعـيٍّ كبـيرٍ في تركيبـة المجتمـع الإسـلامي، وأدّى إلى ظهـور الثـورات والانتفاضـات والصدامات الكـبرى. وكانـت هـذه الفئـة (الثالثـة) تجـد في الإمـام عـلي عليه السلام خـيرَ مُمثّـلٍ لهـا ولكـن بعـد استشـهاده رأت أنّ الإمـام الحسـين عليه السلام هـو مَـنْ يمثلهـا.

أمـا موقـف الفئـة الثانيـة فقـد كان متذبذبـاً لأنهـا كانـت تخـشى الفئـة الأولى وجشـعها الاقتصـادي وطموحهـا السـياسي، وهكـذا فالـصراع الطبقـي سـواءً أكان قبليّـاً أم اقتصاديّـاً أدّى إلى سـحق الفئـة الثالثـة، عندمـا اسـتعانت الفئـة الأولى بالثانيـة.

حصن الأخيضر أم قصر الأخيضر

في دراسـته عـن الأخيـضر يذكـر كاسـكل أنـه (قـصر الأخيـضر)، ونَذهَـب إلى أنـه حصـن مـع قـصر وليـس قـصراً لوحـده، لأنّ القـصر هـو جـزءٌ مـن هـذا

(1) ينظر الصراع السياسي والاقتصادي حول السلطة في بداية العصر الأموي، د. منذر البكر مجلة المورد مجلد3، عدد3 سنة 1974 ص128-132.

الحصـــن الكبـير، فالقــصر كان قــد بُنــي، في البدايــة ثــم أُحيــط بالســور وبهــذا تشــكّل الحصــن، وذهــب كاســكل إلى أنّ حصــن الأخيــضر هــو نفســه قــصر مقاتــل، وهــذا غــير صحيــحٍ، فقــصر مقاتــل مــكانٌ آخــرُ لا علاقــةَ لــه بالحصــن وهــما ليســا بنــاءً واحــداً، وذهــب كذلــك إلى أنّ (قــصر الأخيــضر) هــو مــن أبنيــة العــصر العبــاسي، وهــذا الأمــر كذلــك غــير دقيــقٍ فهــو مــن أبنيــة العــصر الحيــري في العــراق. وهكــذا فملاحظاتنــا حــول بحــث كاســكل تنحــصر في هــذه الأمــور الثلاثــة:

أمــا عــن قــصر مقاتــل فهــو يقــع مــا بــين عــين التمــر والشــام كــما يــرى ياقــوت الحمــوي[1]. وينســبه البــلاذري إلى مقاتــل بــن حســان بــن ثعلبــة بــن أوس بــن إبراهيــم بــن أيــوب بــن مجــروف بــن عامــر بــن غضبــة بــن إمــرئ القيــس بــن زيــد بــن منــاة بــن تميــم[2]. والدكتــور عبــد العزيــز حميــد يقــول: «**إن أســتاذنا الدكتــور صالــح أحمــد العــلي يــرى أن قــصر مقاتــل ربمــا كان الأخيــضر نفســه فــإن لم يكــن هــو فــإن قــصر مقاتــل كان قريبًــا جــدًّا منــه**»[3]، والدكتــور مصطفــى جــواد يقــول: «**ظَــنَّ بعــضُ الأدبــاء أن قــصر مقاتــل هــو حُصــن الأخيــضر الحــالي مــع أنّ القــصر غــير الحصــن وأنّ قــصر مقاتــل كان قــرب الكوفــة في جنــوب الأخيــضر**»[4]، وتُقــدَّر المســافة بينهــما بســتة كيلومــترات إذ يقــع قــصر مقاتــل شــمال حصــن الأخيــضر، وهــو مــا أشــار إليــه أحــد الباحثــين خطــأً[5]، لذلــك أقــول أن قــصر مقاتــل يقــع إلى جنــوب الأخيــضر أي أنّ الــذي يقــع شــمالاً هــو الأخيــضر لا قــصر مقاتــل، ويفصــل بينهــما وادي الأُبيِّــض وقــد يكــون الخلــط بــين المكانــين حاصــلاً بســبب أســبقية قــصر مقاتــل في البنــاء عــلى حُصــن الأخيــضر ولقربهــما، ومــن ثــمّ اتخــاذ قــصر مقاتــل مكانــاً لإيــواء عــمّال البنــاء الذيــن كانــوا يعملــون عــلى تشــييد حصــن

(1) ينظر معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1995، 4/ 643.

(2) فتوح البلدان، ص 248.

(3) أضواءٌ جديدةٌ على حصن الأخيضر،د. عبد العزيز حميد، مجلة سومر، جزء1-2، مجلد 37، سنة 1981، وينظر بحث الدكتور أحمد صالح العلي (منطقة الكوفة دراسةٌ طوبوغرافيةٌ مُستندةٌ إلى المصادر الأدبية)، مجلة سومر، مجلد 21، سنة 1965، ص246.

(4) موسوعة العتبات المقدسة، جمعها الأستاذ جعفر الخليلي، قسم كربلاء، المجلد الثامن بحث (كربلاء قديماً) للدكتور مصطفى جواد مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت ط2 سنة 1987 ص20.

(5) يُنظر: الأبنية الحضارية في كربلاء حتى نهاية سنة 656 هـ الدكتور زين العابدين موسى آل جعفر، منشورات الأمانة العامة للعتبة الحسينية المقدسة، مركز كربلاء للبحوث والدراسات، العدد 6، سنة 2015، ص157.

الأخيضر كما يذهب أحد الباحثين إلاّ أنه تمّ هدم قصر مقاتل بعد إكمال البناء الجديد، وأنا استبعد هذا الكلام لأنه كان موجوداً عندما اتّجه الإمام الحسين عليه السلام من القادسية إلى كربلاء ونَزل به، ولم يكن مهدّماً أو مندثراً سنة 61 ه [1] أي بعد بناء الأخيضر، إذ إلتقى الإمام الحسين عليه السلام في هذا المكان بعبيد الله بن الحر الجعفي، ولكن الأخير لم ينصرْ الإمام الحسين عليه السلام، فنَدَم على ذلك فيما بعد وقال[2]:

غَداة يقول لي بالقصرِ قولاً
أتتركنا وتَزمَعُ على الفراقِ
ولو أنيّ أواسيهِ بنفسي
لنلتُ الكرامة يوم التلاقي

وخرائب قصر مقاتل أصبحت فيما بعد على شكل تلول سُمَّيت بتلول الأخيضر وهي تقع في الجانب الثاني من وادي الأُبيّض وفي الجانب الأول يقع حصن الأخيضر.

أما حصن الأخيضر فهو ليس بقصرٍ بل هو مدينةٌ كاملةٌ، وقد أشار الدكتور مصطفى جواد إلى تأريخ هذا الحصن إذ قال: «**والذي أيّدته التواريخ وعضّدهُ علم الآثار أنّ سابور بن أردشير هو الذي فتحَ مدينة الحَضَر وأخربها، وهو الذي سبا ابنة ملكها وأعرس بها بعين التمر، وهذا يرفع تأريخ حصن الأخيضر إلى القرن الثالث للميلاد بدلاً من القرن الرابع الميلادي، وقد خُرّبت عين التمر وبَقيَ حصنها**»[3]، وهذا يعني أنّ في عين التمر مكاناً يليق بزواج أحد الملوك آنذاك وأشار البلاذري ت279 ه في كتابه فتوح البلدان[4] إلى أنّ القصر الذي يُعرَف بقصر عيسى بن علي- أي زمن البلاذري- هو قصر سابور وهو ذات القصر الذي أعرس به آنذاك. وهو يؤيد ما نذهب إليه أنه قصر من قصور عصر ما قبل الإسلام، فإذا كان سابور بن أردشير وهو من

(1) ينظر حصن الأخيضر دراسة في ضوء التحريات والتنقيبات والصيانة الأثرية، أبا ذر راهي سعدون الزيدي، مجلة العميد، كربلاء مجلد1 عدد1-2، آب سنة 2012 ص575، وينظر الأبنية الحضارية في كربلاء ص157.

(2) تأريخ الطبري 2/ 305- 306.

(3) موسوعة العتبات المقدسة 8 / 30.

(4) فتوح البلدان للبلاذري، تحقيق رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية بيروت سنة 1398 ه.

ملوك فارس في القرن الثالث الميلادي كان قد أعرس به فهذا يعني وجوده قبل هذا التأريخ، بعد ذلك سُمّي بقصر عيسى بن علي الذي جدّدهُ كما قيل سنة 145 ه، ثمّ نُسِبَ إلى الأخيضر أو إلى مَنْ جدّدهُ وهكذا فالبناء باقٍ ويَتَجَدّد عليه ما يحتاج لذلك ويَتَغيرَّ اسمه، حتى وصل العصر العباسي فتم تجديده فاعتقد الباحثون أنه من قصور العصر العباسي بسبب الطُرز المعمارية والنقوش التي ظهرت عليه. وقد وجد أحد الباحثين نقوشاً كتابية على جدران الأخيضر تعود لما قبل الإسلام فكتب بحثاً عنوانه[1] (نقوش كتابية على جدران الأخيضر) وتعود هذه النقوش إلى العرب الصفائيين الذين استخدموا هذا النوع من الخط.

أما عن قولنا أنه حصنٌ وليس قصراً فقد كانت بدايته على شكل قصر، ولكن أضيف إليه فيما بعد السور الخارجي والدفاعات والأبراج ما جعله مدينة مُحصّنة لا قصراً. وقد شَرَحتُ كُلَّ ذلك فيما سبق[2].

(1) نقوشٌ كتابيةٌ على جدران الأخيضر، سامي الكفلاوي، مجلة سومر، مجلد 46، سنة -1989 1990، ص217.

(2) ينظر كتابي (كربلاء القديمة معالمها وقُراها منذ فجر التأريخ حتى سنة 61 هـ).